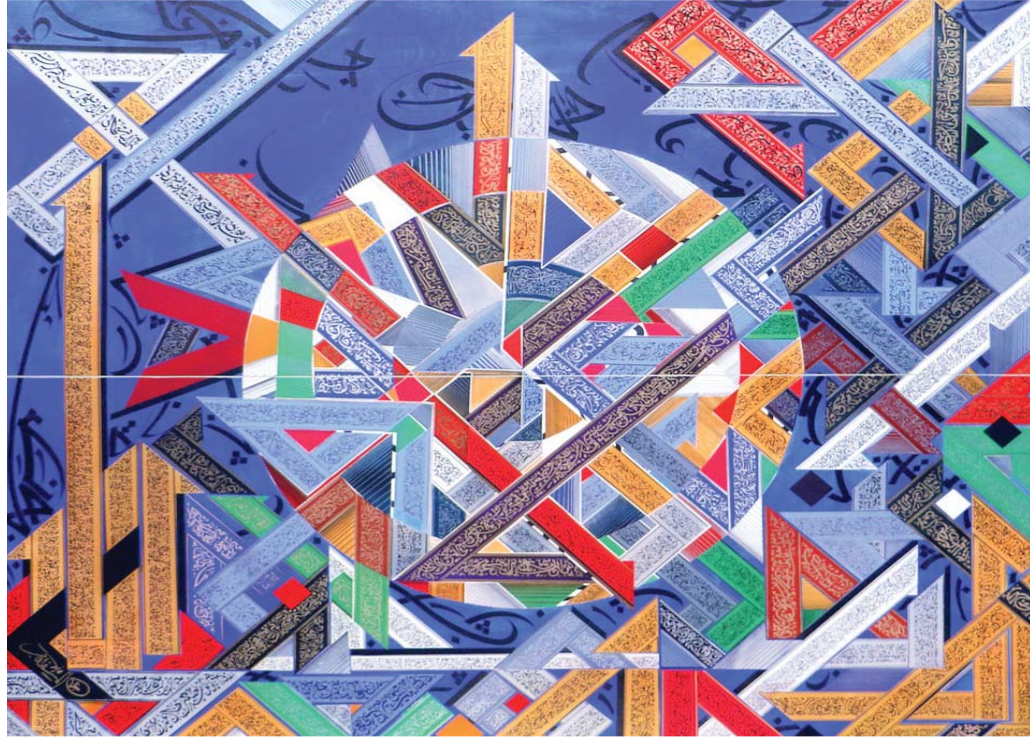


فلنكتب المسلسلات بدلا من الروايات

لغة الرواية بين الزخرف والتعقيد المصطنع



يعتمد كثير من الروائيين اليوم على الحكاية الدرامية وأساليب السرد المتعددة في أعمالهم، ويولون الأسلوب والبناء اهتماما بالغا فيما يغفلون الاهتمام باللغة التي لا يرون فيها أكثر من وسيلة، بينما جوهر الأدب في نهاية المطاف هو اللغة.

أبوبكر العيادي
كاتب تونس

كثيرة هي الأعمال الروائية التي لا تعبر اللغة اهتماما مخصصا، وتكتفي منها بما يسرد حدثا أو يصف موضعا أو يصور وضعية أو يبنى عن حال نفسية أو اجتماعية بآيسر زاه، حتى غدت الأساليب النظرية الفنية متشابهة حد التماثل، تكاد لا تختلف عن الأساليب النظرية المعتادة التي تقوم أساسا على التبليغ، والحال أن الخطاب الأدبي يختلف اختلافا بينا عن الخطابين العلمي والصحافي.

فالخطاب العلمي يقدم للقارئ حلا علميا أو نظريا لمشكلة علمية بالأساس، فيصف ويفسر أو يتكهن بظاهرة، معتادا الموضوعية التامة، وعادة ما يتوجه إلى طالب علم أو عالم. وهو إذ يلتزم بقواعد اللغة، فإنه يتوخى البساطة والوضوح، ويجعل الدقة والتناسق والصرامة مقدمة على جمالية الأسلوب، إذ يتجنب المراءفات والاستعارات والمجازات والبالغة، ولا يتكبر عن التكرار إذا دعت الحاجة لتأكيد مصطلح أو نظرية أو عملية تطبيقية.

أما الخطاب الصحافي فإنه يقوم على إخبار القارئ بما يجد، وحثه على التفكير في ما يطرأ عليه، وغالبا ما يقدم أحداثا ووقائع وقضايا مجتمعية أو سياسية، فيحللها لوضعها في إطارها، وينقدها إن اقتضى الأمر، لأن من شروطه التوسل بالموضوعية في نقل الخبر ونقده أيضا. هو أيضا يلتزم بقواعد اللغة، ويستعمل أسلوبا بسيطا مباشرا، ويفضل الوضوح والإيجاز على اناقة اللغة وجمالية الأسلوب. قد يستعمل الاستعارات لتجميل النص ولكن دون أن يغفل عن أولوية وضوح الفكرة، ووضعها فوق كل اعتبار. وقد استخدم اللغة تقنية إذا كان الموضوع المطروح يستدعي ذلك.

والخطابان يستندان إلى الواقع، إلى ما يتبدى لهما أنه حقيقة، قد تقبل الجدل من منظور هذا الجنس أو ذلك، بخطاب نقدي من جنسهما، بينما الخطاب الأدبي خيالي كله، حتى وإن انطلق من الواقع، وغايته شد الانتباه، والإمتاع، والتحفيز على التفكير والتأمل، والتأثير في القارئ بشكل غير مباشر، والسمو بدونه وأفكاره وتغيير نظرتهم إلى العالم، خطاب معانيها.

يصف واقعا ما من خلال انطباعات سارد أو شخصية أو بطل وحالاته النفسية، في فترة ما وثقافة ما، ويحاول تقديم وجهة نظر تتسم بالجدة والطرافة.

ولئن كان يلتزم بقواعد اللغة التزاما لا غنى عنه بوصفه مرجعا لغويا في حد ذاته، فإنه في سعيه إلى الخلق والابتكار، يميل إلى الجمال والتراكيب الخارجة عن المألوف، والأساليب الجافة الخالية من التقريرية والمباشرة، فيتخير إذا لغويا ثريا، وتعبير مبتكرة، لأن مطمحها جمالي بالدرجة الأولى، وغايته جعل النص أكثر جمالية، وأكثر قابلية للقراءة.

النص الأدبي يلتزم قواعد اللغة بوصفه مرجعا لغويا لكنه يخرج عن المألوف في سعيه إلى الخلق والابتكار

ولا يعني ذلك أن لغة الرواية ينبغي أن تكون قاموسية مرصعة بحوشي الكلام والألفاظ الجزلة والتعابير المهجورة، وإنما أن تحافظ على ما يجعل الرواية نصا أدبيا، ينأى بنفسه عما يسميه الفرنسيون PHEBUS أي الزخرف، وزخرف الكلام لغة معناه حسنه بالفاظ ظاهرها جميل وباطنها كله تمويه وكذب؛ وكذلك GALMATIAS أي الكلام الملتبس الغامض الذي لا يفهم معناه، ويبدو التكلف واضحا في طريقة رصف الفاظه وصوغ معانيها.

الزخرف اللغوي سلبي وإيجابي (لوحة للفنان نجا المهدي)

ومن ثم فإن نعت النصوص التي تحافظ على أدبية النص الروائي كونها زخرفا لغويا وتكلسا بلاغيا إنما هو من قبيل كلمة حق يراد بها باطل. فلئن كان التعقيد والتصنع واستظهار المقدرة اللغوية من المسائل المموجة في الرواية، فإن استعمال اللغة المتداولة في درجتها الصفر، أي تلك التي تقع بأبسط بنية وأقرب لفظ، مستقبخ مستهجن هو الأخر.

يتبدى الزخرف الذي لا يقدم ولا يؤخر في رواية "روائح المدينة" لحسين السواد على سبيل المثال، حيث يبدو الراوي مولعا بالتعقيد في المعاجم والقواميس، فيقوده انبهاره باللغة إلى استعمال الفاظ بالغة القدم، ويغفر عن حوشي الألفاظ مفردات لا تناسب العصر مثل الثلط (الغائط) والإرقال (سرعة سير الإبل) والتجميش (المغازلة). بل إن وقوعه في إغرائها عادة ما يجره إلى المبالغة في رصف النعوت رصفا يتقل الخطاب ولا يغنيه، فتأتي في شكل سبائك قد تبلغ أحيانا ثمانية عشر نعنا (بصرف النظر عن وظفها النحوية وهي هنا خبر لناسخ) كقوله "لكن روائح الحبس كانت حادة قاسية ضاغطة متعسفة قاهرة ظالمة ثقيلة خائفة زفرة دفرة نثنة وسخة ندية لرجة دامعة باكية حارقة كاوية". وحتى عشرين (وهي هنا في موضع حال) كقوله "روائح تنبعث... مرحة أسبانية غضوبا قلوبا لوعبا طروبا مندفة محتمة متاودة مكسالا عوسا مغناجا ضحوكا متمردة فائرة جذلي متعرجة مرعبة مزغردة نشوي".

شاعران سعوديان نجما الأمسية الـ11 من «شاعر المليون»

خلف القحطاني بنتيجة 45 في المئة، وزايد عايض الرويس بنتيجة 44 في المئة. وتنافس أمام لجنة تحكيم البرنامج الشعراء الستة: حمد المويزي الرشيد من الكويت، وحمدة المر من الإمارات، وكل من راكان بن وليد الراشد وحمدة البندر المطيري مع قصيدته التي تحكي ألم فقد الأم لطفليها، جاء بعده خامس نجوم رحلة الشعر على مسرح شاطئ الراحة محمد حسين الشمري في نصه الوطني المعبر عن الإحساس الصادق والعميق

كجزء من بنية فكرة الانتماء للوطن والتعبير عن الهوية، بينما خصص مطرب بن دحيم العتيبي قصيدته لوصف رحلة هزاع المنصوري إلى محطة الفضاء الدولية.

ومع ختام الأمسية، تم الإعلان عن قرار لجنة التحكيم بتأهيل الشعراء محمد البندر المطيري بنتيجة 48 من 50، وراكان بن وليد الراشد بنتيجة 46 من 50، وبينما جاءت نتائج الشعراء الأربعة الذي سينتظرون تصويت الجمهور من خلال موقع وتطبيق شاعر المليون طوال أسبوع كامل، على النحو التالي: مطرب بن دحيم العتيبي بنتيجة 45 من 50، حمد المويزي الرشيد بنتيجة 43 من 50، وحمدة المر بنتيجة 43 من 50، ومحمد حسين الشمري بنتيجة 43 من 50.

كما تم الإعلان عن شعراء الأمسية الثانية عشرة من «شاعر المليون»، وهي الأمسية الختامية ضمن المرحلة الثانية من البرنامج، وموعدها يوم الثلاثاء القادم 10 مارس، وهم: صالح محمد العنزي ومحمد الحمادي العتيبي من السعودية، عاصر بن فواز العجمي وعبد العزيز العبدان الديحاني من الكويت، غازي العون السردى من الأردن، محمد راشد العوييلي من العراق.

وإثر ذلك كان عشاق البرنامج الذي تنظمه لجنة إدارة المهرجانات والبرامج الثقافية والتراثية بأبوظبي، في إطار استراتيجيتها الثقافية الهادفة لصون التراث وتعزيز الاهتمام بالأدب والشعر العربي، على موعد مع تقرير استعرض أهم محطات الأمسية الماضية العاشرة، وما خلقت به من منافسة شديدة وتقارب مستويات الشعراء، تلا ذلك الإعلان عن نتائج تصويت الجمهور من خلال موقع وتطبيق شاعر المليون الذي استمر طوال أسبوع كامل، وأسفر عن تاهل مبارك بالعود العمري بنتيجة 73 في المئة، بينما جاءت نتائج المتسابقين المتبقين كالتالي: بزران السحيم الشمري بنتيجة 65 في المئة، وحمود



شعراء تميزوا في رحلتهم إلى اللقب

الوباء ومجازاته المرعبة

شرف الدين ماجدولين
كاتب مغربي

الوباء، ليس مجرد مرض معد، مفض إلى الهلاك، هو أساسا ذلك الرهاب الناجم عن ثقافته وانتشاره، وهو صور الهروب الكبير منه، وما يقترن بها من تبدل في السلوك والعواطف والقيم، الكف عن التواصل الجسدي، الزهد في السفر، التوقف عن التقاسم والإشتراك، تحول المدن إلى هياكل خرساء وشوارع فارغة، ونأي الجميع عن الجميع، لم يكن ما يطالعا يوميا من أخبار عن خارطة انتشار الوباء المستحدث طارئا، الطارئ هو الصور التي نراها عبر الشاشات لأرقام المتفاقمة، والموت المتنامي عبر الضفاف المتباعدة، والتوق الفطري لهذا الهلاك القصي إلى الاقتراب من مداراتنا الأليفة.

منذ الصفحات الأولى من حكايات: "الديكارون" للكاتب الإيطالي بوكاشيو، يشرع السارد في وصف أثر الطاعون الأسود على إيطاليا ومدينة "فلورنسا"، يمكن أن نعتبر هذه التخابيل، المشبهة دوما بآفة ليلية، وقد كتبت، بمعنى ما، لنسيان الوباء، والشفاء من نكرياته المرعبة، ولمجابهته أيضا؛ هو النص الأكثر تمثيلا للعبة الوباء

الأسطوري الذي اجتاحت أوروبا أواسط القرن الرابع عشر، فيه نكتشف التشوه الداخلي للعواطف الإنسانية، الموارية لتآكل الأجساد وفنائها؛ تنكر الأبناء، وهجر الأزواج لبعضهم، وترك الفروع للأصول في المحاجز، وهروب الإخوة والأقارب والأصدقاء... قساوة لا تكشف عن نفسها بما هي تجر للمشاعر، وإنما بوصفها خفا مجنونا من الوقوع في دائرة العدوى، والسعي إلى الإنعتاق من وهدة القدر الأسود.

حول الوباء سكان مدن إلى أشباح، وعمم الموت اليومي، ونذر أسماء حواضر لامعة إلى مجازات للشؤم، من القسطنطينية إلى يافا ومن ميلانو إلى مارسييا ومن أثينا إلى إسبيلية، ومن فاس إلى لندن... كانت الأعداء تقذف جبلة البشر لتتحول إلى مجرد جثث مؤجلة. في لوحات وروايات يخلد الوباء بقدر كبير من الرهبة وانعدام الفهم، وبدفقات باهرة من الإيمان والكفر معا، كيف يدبر الإله لعبه هذا المصير؛ إن كان عقابا فلم يحصد المؤمنين والعاصين والمجدفين؛ البسطاء والملوك والجهلة والأطباء والكتّاب وال فلاسفة والفنانين؛ ولم يكن النحات خوان مارتيينز مونتانيس وحده من خلد الطاعون جنبا إلى جنب مع منحوتاته العظيمة، لكنه كان الأشد دالة في ترحيل الجسد لحساب الحجر في مطحة الوباء. آلاف التخابيل بعدها سيسكنها السؤال الحائر عن السبب والمعنى.

في لوحة للرسام الفلامنكي بيتر بروغيل، عن الطاعون الأسود تظالعا عربية جماجم وعظام بشرية يجزها جواد عليل يقوده هيكل عظمي، وفي الرصيف تطل الهياكل البشرية ملتفة بالبياض، تراقب محرك الرحيل الجنائزي، وميماوات ناهضة من توابيتها تراقب كنس المدينة من البياب الجسداني المترحل، في اللوحة موت مرعوب

مع صليب وغراب، ووجه امرأة مسرمن يرتو للفاجة، ثم السواد وطبقاته الداكنة المظلمة للأحمر الباهت. كانت اللوحة من أكثر الأعمال حدة في تمثيل الوباء المكتسح للناس والمحيط والمدن، ستتلوها مئآت الأعمال الفنية عن المدن المكتوبة بالطاعون لفنانين معروفين وآخرين مجهولين، لكن أغلبها ستحمل عنوان "الطاعون"، مخلدة الفاجعة ومتسائلة وراثية، وناقلة إحساس الربع الجهنمي؛ لكن ربما كانت لوحات الفنان الفرنسي ميشيل سير عن الطاعون في مارسييا هي أكثر اللوحات التي ربطت الوباء بمدن بذاتها، على نحو شبيه بما قامت به رواية "الطاعون" لابيير كامو مع مدينة وهران.

في لوحات وروايات يخلد الوباء بقدر كبير من الرهبة وانعدام الفهم، وبدفقات من الإيمان والكفر معا

في رواية البير كامو، نلاحق أحداث الثلاثي منذ الصفحات الأولى، لجردان تنفق فجأة، فرادى ثم جماعات، قبل أن تشرع مصالحي البلدية في تجميع الآلاف منها صباح كل يوم لتحرق، إلى أن تتلاحق ترنحات المرضى الزائرين لعيادة الدكتور برنار ريو؛ وفي موجة الموت المحموم المطبق على مدينة وهران المستكينة لإيقاع العمل اليومي، يبرز القدر والفرطة الإنسانية والربح الخارق من الموت الهادر المتدفق من الحنايا، تبدو الرواية عن "ما وراء" الوباء و"ما بعده" وما يسكن في أحشائه، ما يفرزه من تشوهات داخلية، وما يشيعه من استسلام للقدرة والهروب من مواجهة الحقيقة، واعتبار الوباء عبارة لا محالة في فقرة من الرواية يسطر

السارد ما يلي "يقول المرء لنفسه إن البلية غير حقيقية، إنها حلم مزج سيمر، ولكنه لا يمر دائما، ومن حلم مزج إلى حلم مزج، يمر الناس أنفسهم، والإنسانيون بالدرجة الأولى، لأنهم لم يأخذوا حيطتهم... وكانوا يفكرون أن كل شيء ما برح ممكنا في نظريهم، وهذا ما يفرض أن البلية كانت مستحيلة، ولهذا فقد كانوا يتابعون أعمالهم ويستعدون للأسفار، أني لهم أن يفكروا بالوباء الذي يلغي المستقبل... لقد كانوا يعتقدون أنهم أحرار، ولن يكون أحد حرا ما دامت ثمة ألبانيا".

في الرواية نستعيد ذلك النزوع الدائم لاستبعاد الفاجعة وتكذيبها، قبل السقوط في الموت الداخلي قرين رهاب العدوى، فيها يتجلى الإحساس بالموت بما هو قدر يمكن خداعه بالجفاء والخسة، وفيها تعيش تخيلا ما يحاصرنا اليوم عبر الشاشات، أي الإحساس بان الوباء قادم لكنه سيخطفنا لا محالة، ولا جدوى من اعتبار الحياة قد زاعت عن طبيعتها في تركيب الموت على سكة العمر الفردي المنتقى.



لوحة الطاعون الأسود لبيتر بروغيل